تزكيّة النّفس وإِحْكامها من أهمّ مقاصد فريضة الحج وتعاليمها

2024-05-03

الْحَمْدُ للهِ الَّذِي جَعَلَ لِمَا شَرَعَ مِنَ العِبَادَةِ حِكَمًا وَغَايَاتٍ، وَمَقَاصِدَ سَامِيَاتٍ، فَرَضَ الحَجَّ تَرْبِيَةً لِلنُّفُوسِ وَتَهْذِيبًا، وَتَشْوِيقًا لِرِضْوَانِهِ وَتَرْغِيبًا، فَضْلاً مِنَ اللهِ وَنِعْمَةً وَكَفَى بِاللهِ حَسِيبًا، فسبحانه من إله شرع المناسك لمصالح العباد ومنافعِهم. فقال في سورة الحج: ((وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ)). وَأَشْهَدُ أَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، شَرَعَ الشَّرَائِعَ لِتَزْكِيَةِ النَّفْسِ البَشَرِيَّةِ، وَنَهْجًا لِهَنَاءِ الإِنْسَانِيَّةِ، وَسُلَّمًا إِلَى السَّعَادَةِ الأَبَدِيَّةِ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا مُحَمَّدًا عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ، وَصَفِيُّهُ مِنْ خَلْقِهِ وحَبِيبُهُ، أَرْسَلَهُ إِلَى النَّاسِ مُصْلِحًا وَمُزَكِّيًا، وَعَلَى الفَضَائِلِ دَلِيلاً وَمُرَبِّيًا، ذُو النَّفْسِ الكَامِلَةِ السَّوِيَّةِ، وَالسِّيرَةِ النَّقِيَّةِ المَرْضِيَّةِ، خَيْرُ مَنْ صَلَّى وَخَشَعَ، وَذَلَّ لِرَبِّهِ وَخَضَعَ، مَنِ اقتَدَى بِهِ هَدَأَ بَالاً، وَسَعِدَ حَالاً وَمَآلاً،

هذا الحبيبُ الهاشميُّ شفيعُنا * يوْمَ الحسابِ وموْقِفِ الخسرانِ

هذا المكرَّم والمعظَّم قدْرُه * هذا الدليل لجنّة الرِّضوان

هذا الذي ساد الورى وعليه قد * صلّى إله العرش في القرآن

صلّوا عليه وارفعوا أصواتَكم * تُعْطُوا الثوابَ وجَنَّةَ الرِّضْوانِ

اللهم صلِّ وسلِّم وبارك على سيّدنا محمد. شفيعِ الخلائق وبحرِ الوفا. وعلى آله الشرفا. وأصحابه الحنفا. خصوصا الأربعة الخلفا. وعلى كل مَن إليهم اقتفى. صلاة نسألك اللهم بسرّها أن تمنّ علينا بحجّ بيتك الحرام الذي بمكة المشرَّفة. وتسهّل علينا بها زيارة نبيّك وحبيبك المصطفى. صلى الله عليه وآله وسلم. بفضلك وكرمك يا أرحم الراحمين. يا رب العالمين. **أمّا بعد:** فيا أيّها المسلمون. إنّ الله تعالى شرع أنواع العبادات تطهيرا للنفوس.

وتزكية للأرواح. وتقوية للعقيدة. وجعلها سبحانه علاجا للمسلم لدوافع الشر. ونوازع التمرّد والعصيان. وتربية للروح المسلمة الوادعة. فقال تعالى في سورة العنكبوت: ((إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ)). وقال جلّ شأنه في سورة التوبة: ((خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا)). وقال تعالى في تعقيبه آية الصوم كما في سورة البقرة: ((وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)). وإذا كانت هذه العبادات تختلف في علاج أدواء النفس. وأمراض القلب. فبعضها يعالج الكِبر والغرور. وبعضها يعالج الشح والبخل. وبعضها يقوّي العزائم. ويعوّد الصبر. ويرقّق القلب. ويهذّب الوجدان. فإنّ الله جلّ شأنه قد فرض الحج تتميما لهذه العبادات. وتمكينا لآثارها في النفس. أيّها المسلمون. فالحج صلاة لِمَا اشتمل عليه من ذِكر وتبتّل وخضوع وخشوع ومناجاة ودعاء. والحج زكاة لِمَا يقتضيه من نفقات ويتطلّبه من مال لا تجود به إلا نفس عمَرَها الإيمان وملأها اليقين. والحج صيام لِمَا فيه من مشاقّ وآلام لا يحتملها إلا مَن عوّد نفسه الصبر وألزمها الإحتمال. فضلا عمّا يتبع ذلك من عطف وشفقة على الفقراء والمساكين وبِرّ بالمعوزين. والحج جهاد أكبر. وأيّ جهاد فوق أن يغالب الإنسان نفسه. ويقهر إرادته. فيخرج من وطنه وأهله وولده وماله إلى سفر بعيد. ومشقّة فادحة. وغربة موحشة. لا جرم لا يفعل ذلك إلا مَن رَخُصت عليه نفسه في سبيل الله. وعزّت فيه عقيدته. وآثر آخرته على دنياه. أيّها المسلمون. إنَّ الْهَدَفَ الأَسْمَى وَالْغَايَةَ الْعُظْمَى مِنْ مَشْرُوعِيَّةِ الْحَج تَرْسِيخُ مَلَكَةِ التَّقْوَى فِي النُّفُوسِ، وَهِيَ خَيْرُ زَادٍ لِيَوْمِ الْمَعَادِ، وَقَدْ أَشَارَ اللهُ إِلَى هَذَا الْمَعْنَى عِنْدَمَا قَالَ فِي آيَاتِ الْحَجِّ. كما في سورة البقرة: ((الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ)). فَعَلَى الْمُؤْمِنِ أَنْ يُعَظِّمَ حُرُمَاتِ اللهِ، وَأَنْ يَقِفَ عِنْدَ حُدُودِ اللهِ، يَقُولُ اللهُ تَعَالَى فِي وَسَطِ آيَاتِ الْحَجِّ من سورة الحج: ((ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ)).

وَلَنْ يَنَالَ اللهَ مِنَ الْحَجِيجِ مَالٌ أَنْفَقُوهُ، وَلا جُهْدٌ بَذَلُوهُ، وَلا هَدْيٌ نَحَرُوهُ؛ وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْهُمْ، يَقُولُ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ فِي خِتَامِ آيَاتِ الْحَجِّ: ((لَنْ يَنالَ اللَّهَ لُحُومُها وَلا دِماؤُها وَلكِنْ يَنالُهُ التَّقْوى مِنْكُمْ كَذلِكَ سَخَّرَها لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلى ما هَداكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ)). أيّها المسلمون. فِي الحَجِّ تَرْبِيَةٌ عَلَى التَّسْلِيمِ وَالانْقِيَادِ لِشَرْعِ اللهِ العَظِيمِ، وَالإِيمَانُ لا يَتِمُّ إِلاَّ بِالرِّضَا بِحُكْمِ اللهِ وَالتَّسْلِيمِ له، قَالَ تَعَالَى في سورة النساء: ((فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا)). وَالحَجُّ مَعَ ذَلِكَ تَرْبِيَةٌ لِنُفُوسِ المُؤْمِنِينَ، وَتَهْذِيبٌ لِمَقَاصِدِ السَّالِكِينَ، أَنْ يُخْلِصُوا أَعْمَالَهُمْ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ، قَالَ سُبْحَانَهُ في سورة غافر: ((هُوَ الْحَيُّ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)). وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم قَالَ فِي حَجَّتِهِ: ((اللَّهُمَّ حَجَّةً لا رِيَاءَ فِيهَا وَلا سُمْعَةَ))، فَهُنَاكَ حِينَ تَتْعَبُ الأَجْسَادُ، تَقْوَى صِلَةُ الأَرْوَاحِ بِرَبِّ العِبَادِ، فِي سَفَرٍ لَيْسَ مِنْ مَقَاصِدِهِ الرَّفَاهِيَةُ الجِسْمِيَّةُ، بَلِ التَّرْبِيَةُ الرُّوحِيَّةُ، وَالتَّزْكِيَةُ الإِيمَانِيَّةُ، الَّتِي يُعَايِشُهَا الحَاجُّ بِجَمِيعِ جَوَارِحِهِ، وَيُعَايِشُهَا غَيْرُ الحَاجِّ بِمُشَاهَدَاتِهِ، حِينَ تَنْقُلُ لَهُ وَسَائِلُ الإِعْلامِ مَشَاهِدَ الحَجِيجِ فِي المَشَاعِرِ العِظَامِ، بَعِيدًا عَنِ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا مِنَ الحُطَامِ، يَذْكُرُونَ اللهَ لا سِوَاهُ، وَيَشْكُرُونَهُ عَلَى مَا أَوْلاَهُ، وَيَسْكُبُونَ العَبَرَاتِ طَمَعًا فِي عَفْوِهِ وَرِضَاهُ، قَالَ تَعَالَى في سورة الحج: ((لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ)). أَيُّهَا المُسلِمُونَ. إِنَّ الحَجَّ بِكُلِّ مَشَاعِرِهِ وَأَرْكَانِهِ، وَسُنَنِهِ وَآدَابِهِ، مَنْهَجٌ تَرْبَوِيٌّ مُتَكَامِلٌ لِبِنَاءِ النَّفْسِ السَّوِيَّةِ، وَالتَّنْشِئَةِ عَلَى الأَفْكَارِ النَّقِيَّةِ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ غَسْلٌ لأَدْرَانِ الذُّنُوبِ وَالخَطَايَا، وَبُعْدٌ عَنِ الرَّزَايَا وَالبَلايَا، فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم أَنَّهُ قَالَ: ((مَنْ حَجَّ فَلَمْ يَرفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ رَجَعَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ))، أَيُّهَا المُسلِمُونَ. إنّ فريضة الحج فرصة لتزكية النفوس. لتقصد وجه الله تعالى وحده، ولتستبدل الرفث والفسوق والعصيان بالقول الحسن

والبر والتقوى. ولتستبدل بالجدال السعي للوفاق. لأنّ تزكية النفوس هي المهمّة الدائمة التي ينبغي على المسلم أن يقوم بها تجاه نفسه وتجاه من يحب، لا تتوقّف في زمن من الأزمان، فإن كنتَ ممّن عزم على الحج هذا العام فاستحضر هذه المعاني. وإن سبق لك الحج فتذكّر فضل الله عليك. وما منحك من فرصة للتزكية، فاحرص على استعادتها واستدامتها. لتحقّق عبوديتك لربك. وتستنزل رحمته وفضله وإحسانه. أَيُّهَا المُسلِمُونَ. تَفَقَّهُوا فِي دِينِكُمْ، وَخُذُوا مِنْ مَوَاقِفِ الحَجِّ وَمَشَاهِدِهِ عِبْرَةً وَذِكْرَى، وَاعرِفُوا مَقَاصِدَهُ لِيَكُونَ تَرْبِيَةً لِنُفُوسِكُمْ، وَتَهْذِيبًا لِسُلُوكِكُمْ، وَرُقِيًّا بِأَفْكَارِكُمْ. وَحَقِّقُوا الإِخْلاص للهِ فِي العِبَادَةِ. وَتَحَلَّوا فِي أَسْفَارِكُمْ بِالأَخْلاقِ الحَمِيدَةِ، وَتَزَوَّدُوا التَّقْوَى؛ تَسْتَنِرْ بَصَائِرُكُمْ، وَتَجْنُوا ثِمَارَ أَعْمَالِكُمْ. اللهم وفّقنا لأرشد الأقوال والأفعال. فإنّه لا يوفّق لأرشدها إلا أنت. اللهم جنّبنا سيّء الأقوال والأفعال. والأهواء والأدواء. فإنّه لا يجنّبنا سيّئها إلا أنت. اللهم وفّقنا لِسُلُوكِ الْهَدْيِ الْقَوِيمِ، وَلُزُومِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، اللهم اجبر حنين أفئدتِنا بتسهيل حجّ بيته الحرام. وزيارة حبيبه عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام. بفضلك وكرمك يا أرحم الراحمين. يا ربَّ العالمين. وآخِر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين. اهـ